٣ - المقاهي والصالونات الأدبية وأثرها في تاريخ مصر من نهايات القرن التاسع عشر وحتي منتصف القرن العشرين

ترتبط هذه الدراسة أكبر الارتباط بتاريخ المجتمع المصرى فهى معرض بديع لتاريخ مصر السياسى والاجتماعى والثقافى خاصة وأنها تمت بأكبر الصلات للعديد من زعماء مصر ومفكريها الذين كانوا يتخذون من المقاهى والصالونات منتديات لهم يجتمعون فيها لمناقشة أمور الوطن والحلول الكفيلة للتخلص من مشاكله . كما أنها تتصل بتاريخ العادات الشعبية بتراثها الكبير الذى خلفته لنا الأجيال السابقة ، وتكشف عن الينابيع الأصيلة للأدب الشعبى والفنون الشعبية التى شكلت وجدان الشعب المصرى ، وشخصيته المميزة على مدى العصور والتى كانت ذخيرة حية ، ومنطلقا للأجيال الحاضرة التى رأت فيها مصر بعيون صادقة جمعت بين الأصالة والمعاصرة .

وإلى جانب ذلك فإن هذه الدراسة تتعرض لحياة الأفراد العامة ، كما تتعرض لبعض الظواهر الأخلاقية والثقافية لدرجة أنها قدمت لنا المجتمع المصرى فى أثوابه الختلفة زاهية وقاتمة بل وبالية فى أحيان أخرى .

ويبدو أن المؤرخ تقى الدين المقريزى (١٣٦٤ ـ ١٤٤١ م) كان أول من فطن إلى أهمية هذا الموضوع فقضى أعواما طويلة من حياته فى خططه التى تعد من أنفس المصادر فى تاريخ مصر الاسلامية ، والتى لم ينس فيها ذكر المقاهى والمنتديات التاريخية ، فقدم لنا مجموعة من الصور الاجتماعية والشعبية الفريدة .

ثم جاء على مبارك ، وسار على منواله فقدم « الخطط التوفيقية » تلك الموسوعة الهامة التى أخرج فيها لمصر المعاصرة ـ من غمر الأحقاب البعيدة ، والآثار المنسية والأطلال الدارسة ـ صوراً فياضة واضحة مزجت الماضى بالحاضر [١] .

وقد أحصى على مبارك عدد المقاهى فى القاهرة وحدها فى عام ١٨٨٠ م فكان عددها ١٠٦٧ مقهى ، وكان أكبر عدد منها فى منطقة الأزبكية حيث بلغت ٢٥٢ مقهى ، ثم جاءت منطقة بولاق فى المرتبة الثانية حيث بلغ عدد المقاهى بها ١٦٠ مقهى وبالنسبة لمنطقة الجمالية فكان يوجد بها ١٤٢ مقهى أما منطقة عابدين فقد بلغ عدد المقاهى بها ١٠٢ مقهى .

وربما ارتبط احصاء تعداد هذه المقاهى بالتوزيع الجغرافى للسكان ، والتركيبة الاجتماعية فى ذلك الوقت فالازبكية مثلا ارتبطت بأنها كانت مكانا للترفيه ، ومن هنا تزايد عدد المقاهى فى هذه المنطقة خاصة حول بركة الأزبكية حيث كان يجتمع الأهالى ، وبالنسبة لبولاق فكانت شبيهة بالأزبكية نظرا لوقوعها على النيل حيث كان يجتمع الناس حوله ، أما بالنسبة للجمالية فقد كانت ملتقى الأسواق فى ذلك الوقت ومن البديهى تواجد المقاهى بها .

وقد انقسمت المقاهى إلى قسمين مقاهى بلدية ، ومقاهى أفرنجية ، وكانت هناك أيضا مقاهى للنوبيين تعد بمثابة وكالات أنباء بالنسبة لهم فى القاهرة يعرفون خلالها أخبارعائلاتهم [٢] كما كانت

---

(١) محمد عبد الله عنان : مصر الاسلامية وتاريخ الخطط المصرية ، القاهرة ، دار الكتب المصرية ، ١٩٣١ ، ص ٧٠ – ٧٣ .

(٢) عبد المنعم شميس : قهاوى الأدب والفن فى القاهرة ، القاهرة ، دار المعارف ١٩٩١ ، ص ١٥ .

توجد مقاهى للصعايدة ، ومقاهى أخرى مخصصة لأصحاب الحرف والمهن المختلفة .

وإلى جانب هذه المقاهى أو تلك المنتديات الشعبية سنتعرض للمنتديات الارستقراطية أى الصالونات الأدبية تلك التى كان يؤمها فئة رفيعة المستوى من كبار رجالات مصر الذين نقشت أسماؤهم بحروف بارزة فى سجلات الفكر المصرى المعاصر ، وفيما يلى نعرض للأدوار التى لعبتها المقاهى ثم نتبعها بالصالونات الأدبية .

أولا: المقاهي:

١ - الدور الاجتماعي والفكري:

لقد ضمت المقاهى والمنتديات خلال هذه الفترة مزيجا مختلفا من طبقات المجتمع المصرى فكان منها الأزهرى المعمم ، ومنها الأفندى المطربش ، ومنها التاجر والموظف ، ومنها أرباب الحرف والأعمال اليدوية، كما كان منها بعض أفراد الطبقة السفلى الذين يغرمون بالسخرية من عباد الله وكان لهؤلاء وهؤلاء ضروبا شتى من الطباع ، وألوانا متباينة من التصرفات بعضها بغرض التسلية والتسرية وبعضها الآخر بهدف كسب الرزق والاحتيال عليه ، بل وبعض منها بغرض كسب الاعجاب ، وهناك ما كان غرضه الهرب من الحياة الزوجية والبعد عن حياة الأسرة ، بل كان هناك من يذهب لتناول المشروبات وقرقرة الشيشة وتدخين النرجيلة التى كان يهيئها صاحب القهوة ، ومنهم من كان يذهب للاشتراك فى جلسات الحشيش والقمار [١] ومنهم من كان يقوم بممارسة الألعاب المسلية مثل لعب الورق والشطرنج والنرْد [٢] ، وغيرها

---

(١) ادوارد وليم لين : المصريون المحدثون شمائلهم وعاداتهم فى القرن التاسع عشر ، ترجمة عدلى طاهر نور ، القاهرة ، مطبعة الرسالة ، ١٩٥٠ ، ص ٢٤٨ .

(٢) اللعبة المعروفة بالطاولة .

مع أصدقائه بغرض قضاء بعض الوقت معهم ينفحهم فيه من الأحاديث حلوِها ومرها ، ومنهم من يذهب إليها لمشاهدة القرداتية والحواة الذين يقدمون رقصات شعبية ساخرة فى تلك الأمكنة ، بالاضافة إلى أصحاب الثعابين الذين يجعلونها ترقص على أنغام المزامير ، ومنهم من يذهب إليها للانصراف عن مشاكله الحقيقية إلى غيبوبة القصص الخرافية والحكايات الوهمية فيستمع إلى الأدباتية وقصص القصاصين بل وفى أحيان أخرى يستمعون إلى شعراء الربابة الذين يقصون قصص القدماء والسير الشعبية ذات المضمون الأدبى المؤثر مثل سيرة بنى هلال ، وأخبار النبى أيوب ، وقصة سيف بن ذى يزن [1] ومنهم من كان يذهب إليها للترفيه عن نفسه بمشاهدة عروض للعرائس المتحركة « القراجوز » وعروض خيال الظل ومنهم من كان يرى فيها تجمعاً يؤمه أهل الفكر وأعلام السياسة والصحافة ومجلسا للدعابة البارعة والروح المصرية المرحة ، ومقصداً للأدباء والشعراء وأصحاب المواهب من الشبان الذين تألق نجم بعضهم ، وأصبحوا يتبارون بمساجلاتهم ويكتبون وينظمون ويتناقشون فى علومهم وفنونهم وتقوم المجادلات بينهم حول المعركة بين القديم والجديد أو فى المقارنة بين حافظ وغيره من الشعراء خاصة بعد أن ضاقت البيوت عن استضافة مثل هؤلاء الأصدقاء ، وتلك المجموعات الكبيرة من الناس ذات الأهواء المختلفة والمواهب المتعددة ، وبذلك أصبحت المقاهى والمنتديات تلعب دورا كبيرا فى الحياة الاجتماعية المصرية ، خاصة وأنها كانت مجالا لاطلاق النكت العذبة ، والأحاديث الأدبية ، والفكاهة الحلوة ، والقفشات الطريفة ، والدعابات اللطيفة بين

---

(١) محمد عمر : حاضر المصريين أو سر تأخرهم ، القاهرة ، مطبعة المقتطف ١٩٠٢ ، ص ٢٦٠ . ولتفاصيل ذلك انظر مجلة التنكيت والتبكيت فى ٦ يونيو ١٨٨١ ، ص ١٠ - ١١ تحت عنوان « تخريفة الجنون فنون » حيث ندد النديم بالجهال من شعراء الربابة الذين يحفظون ما لا يفهمون .

رجالات الفكر والسياسة والأدب ، والتى كانت تستمر طويلا على ألسنة العامة من الناس ، والتى لو كانت قد جمعت فى كتب لجاءت لنا بكم كبير من الأسفار والمجلدات الأدبية والعلمية والترويحية المفيدة التى كانت تشكل ذخيرة رائعة لهؤلاء الرواد العظام فى كل فن من الفنون .

وإلى جانب ذلك فقد لعبت المقاهى والصالونات دوراً هاماً فى تكوين مجموعة من أبرز المفكرين الذين قادوا الحركة الثقافية فى مصر ، وكان كل مقهى منها عبارة عن حياة زاخرة بالأفكار ، والأحداث والشخصيات ففى مقاهى الاسكندرية المنتشرة فى أزقة أحيائها وحول الميناء نشأ الأديب والسياسى عبد الله النديم الذى أضحك الناس وأبكاهم حيث اختلط بالحمالين والسقائين وأصحاب المزاج الذين يسخرون بكل شىء ، ومن كل شىء سخريةً موجعةً كأنها السياطُ التى تجلدُ ظهر المجتمع .

لقد تعايش النديم مع هؤلاء واستمع إليهم وشاركهم السخرية من أوضاع المجتمع المقلوبة وكانت كتاباته فى مجلته التنكيت والتبكيت من أروع الأدلة على ذلك فتحت عنوان « تخريفة الجنون فنون » أعطى النديم صورة كاريكاتورية لجو مقهى مصرى جلس عليه أحد المحتالين يقرأ أكاذيب سماها قصة عنترة فاجتمع إليه الكثير من الرعاع والهمج الذين ولعوا بسماع الأكاذيب والخرافات . وقد دعا النديم هؤلاء إلى الانتباه إلى مشاكلهم الحقيقية بدلا من ضياع وقتهم فيما لا ينفعهم [١] ، وذلك باسلوب واقعى جذاب يحمل بين دفتيه التنكيت والتبكيت معا .

وإلى جانب ذلك تعرض النديم لتجربته الشخصية مع الأدباتية الذين كانوا يمرون على المقاهى فذكر أنه كان جالسا فى مقهى الصباغ المجاور للمسجد الأحمدى بطنطا ذات مرة فمر عليه أحد

---

(١) التنكيت والتبكيت : العدد الأول فى ٦ يونيو ١٨٨١ ، ص ١٠ - ١١ .

الأدباتية المحترفين بطبلته وطرطوره ووجهه المدهون بالجير يبغى منه قرشا بقوله :

أنعم بقرشك يا جندى ... وألا إكسنا أمال يا أفندى
إلا أنا وحياتك عندى ... بقى لى شهرين طوال جيعان

ولما كان جيب النديم خاويا فى ذلك الوقت ، ولا يملك قوت يومه فقد تحركت فيه أريحيته ورد مرتجلاً :

أما الفلوس أنا مديشى ... وإنت قلت لى : أنا ما أمشيشى
يطلع علىّ حشيشى [1] ... أقوم أملص لك لودان !

وتستمر المبارزة نحو ساعة ينهزم بعدها الأدباتى أمام النديم [2] .

وعن أهم مقاهى القاهرة خلال تلك الفترة مقهى الفيشاوى القريب من مدخل خان الخليلى الضيق من جهة الحسين حيث جلس معظم أدباء ومفكرو مصر وصحفيوها على اختلاف عقلياتهم وتباين ثقافتهم حول موائد الشاى الأخضر والأحمر ، والشيشة العجمى كل مع من يأنس إليه ، فنجد منهم الشيخ الأزهرى القح ، والأديب الذى ملأ جعبته بالنوادر ، والحديث عن العقاد والمازنى وهيكل وطه حسين والزيات

---

(١) أى يخرج عن صوابه لأن الحشاش يتصرف غالبا تصرفات غير طبيعية .

(٢) أحمد أمين : زعماء الاصلاح فى العصر الحديث ، القاهرة ، النهضة المصرية ١٩٧١ ، ص ٧٨ .

ومن الفنون الشعبية التى كانت معروفة فى مقاهي القاهرة أيضا فن القافية وهو فن يقوم على مباراة كلامية بين شخصين يطلب أحدهما من صاحبه أن يدخل معه فى قافية ، وعندما يقول الأول كلاما لاذعا فى وصف صاحبه يقول له الآخر (ايش يعنى) أى ماذا تقصد فيرد عليه الشخص الآخر ردا لاذعا أيضا ، ومن شروط هذه المباراة ألا يغضب أحد الطرفين ، وقد اشتهرت قهوة بجوار جامع السيدة نفيسة بهذا اللون من فنون المقاهى . ومن المعروف أن الفنان نجيب الريحانى بدأحياته التمثيلية بتقليد هذا اللون من الفنون .
انظر : عبد المنعم شميس : مرجع سابق ، ص ٢١ - ٢٢ .

وأحمد أمين وغيرهم والصحافى الذى يتحدث عن نجوم السينما والمسرح ويتطرق إلى يوسف وهبى ، وجورج أبيض ، وأمينة رزق .

وكانت السهرات الطيبة فى هذا المقهى تكثر فى شهر رمضان ، فتستبدل أكواب الشاى بأكواب الزبيب والمكسرات ، كما يتزايد فى حلقات الفيشاوى رجال السياسة والأدب والصحافة . فنجد لطفى السيد باشا ، وهيكل باشا ، وفكرى أباظة ، ولطفى جمعة والكثيرين من أساتذة الجامعة ومشايخ الأزهر وأعضاء مجلس النواب كل منهم يطلب السمر ، والاستعانة على السهر حتى السحور . وبعد أن يأتى العيد يعود الوضع إلى مستواه ، ولا يبقى بالفيشاوى إلا الذين يعكفون عليه من الصحفيين والأدباء والشعراء [١] .

ونذكر مقهى المضحكخانة بالسيدة زينب حيث التقى أهل الفكر والأدب يتشاورون فى أمور وطنهم ، ومن هؤلاء نذكر أمين فكرى ، وأحمد سمير ، والشيخ حسن الآلاتى [2] .

وفى حى الحلمية كان هناك مقهى يرتاده الأدباء والمفكرون واختلط بين جدرانه الأدب بالسياسة ، وكان من رواده حسين رشدى ، وأحمد شوقى ، وحفنى ناصف ، وحافظ ابراهيم ، والمازنى [٣] .

وفى باب الخلق ذلك الميدان الذى يمر به الطريق الواصل الى الحسين ، والسيدة ، والامام ، وفيه كانت تقام دار الكتب وجدت قهوة باب الخلق التى كانت منتدى للصحفيين والأدباء قضوا به العديد من السهرات العامرة ، والمجالس الحافلة التى حملت العديد من الذكريات

---

(١) الرسالة ، ١٩٣٩ ، ص ٤٠٤ - ٤٠٥ .

(٢) جمال الدين الرمادى : عبد العزيز البشرى ، القاهرة ، أعلام العرب ، ١٩٦٣ ، ص ١٠٥ .

(٣) الرسالة : العدد ٢٩٢ فى ٦ فبراير ١٩٣٩ .

فخلال عمل حافظ ابراهيم بدار الكتب كان ينسل إلى هذا المقهى مع صحبه وإخوانه أمثال امام العبد ، وصاحب الصاعقة ، ومنشىء الحمارة يقطع وقته فى جد القول وهزله [١] .

وكان يجلس فى هذا المقهى الشيخ محمد المهدى ، وحفنى ناصف والشيخ محمد الخضرى ، وبعض طلاب الأزهر ، ومدرسة المعلمين الناصرية يتحدثون فى الدين والسياسة ، واللغة والأدب كما ارتاد هذا المقهى طه حسين ، وأحمد حسن الزيات ، وبعض المتمردين على حواشى الأزهر ومتونه ، واستمر طه حسين يرتاد هذا المقهى ، وبعد أن تمرد على اخوانه راح ينعتهم بأدباء باب الخلق [٢] .

وفى مقهى الكتبخانة المواجه لمبنى دار الكتب بشارع محمد على كان المكتب غير الرسمى لشاعر النيل حافظ ابراهيم فكان لا يصعد مكتبه فى دار الكتب إلا قليلا ، وكانوا يحضرون له الأوراق الرسمية التى يجب وضع توقيعه عليها فى هذا المقهى وهو يشرب القهوة ، ويدخن الشيشة ، ويتلو شعره لولى الدين يكن ، وخليل مطران ، وفؤاد الصاعقة وغيرهم ليتبين آراءهم فيه ، كما كان يتعرض لأحوال مصر الاجتماعية مازجا ذلك بالنوادر والفكاهات ، ومن كان يطعن فى فنه فذلك الكسر الذى لا يجبر ، وذلك الذنب الذى لا يغفر .

وفى مقهى ايزافيتش بميدان التحرير توافد الفنانون والمفكرون والمثقفون من كل لون فقد تردد عليها المؤرخ محمد صبرى السربونى والمهندس حسن فتحى ، وأبو بكر سيف النصر الذى كان يشبه الملك فاروق كثيراً ، وتوافد عليها رجال الحركة الشيوعية ، كما توافد عليها

---

(١) محمد كامل جمعة : المرجع السابق ، ص ٥٣ .

(٢) الرسالة : العدد ٣٠٤ فى أول مايو ١٩٣٩ تحت عنوان « الأندية الأدبية فى مصر ، ص ٨٦٦ .

المحامون ، وكبار الموظفين وأعيان الريف الذين كانوا يترددون على وزارات الحكومة ومصالحها فى حى لاظوغلى .

وفى مقهى عبد الله التى توسطت يوما ميدان الجيزة تركزت حلقات الأدباء والمثقفون فى أواخر الخمسينات ، واجتمع فيها المفكرون والأدباء يشربون الشاى والقهوة ويقرأون لبعضهم البعض أخر ما توصلت إليه قرائحهم من انتاج ، وتدور بينهم فى بعض الأحيان المعارك الفكرية التى شكلت ملامح ذلك الوهج الذى يطلق عليه الثقافة المصرية الحديثة . وقد ضمت هذه المجموعة رجاء النقاش ، ولويس عوض ، ومحمود السعدنى ، وصلاح عبد الصبور ، ونعمان عاشور ، ورشاد رشدى ، وأحمد رشدى صالح وغيرهم .

وفى مقهى صان صوصى (بلا هموم) تركزت جلسات رواد الأدب الشعبى حيث ارتبط هذا المقهى برواد الفنون والآداب الشعبية وكان رشدى صالح ، ونعمان عاشور ، وعلى الراعى من رواد هذا المقهى ، والثلاثة يمثلون روافد هامة فى دراسات الفولكلور ، وفن المسرح ، وفى النقد الأدبى .

أما مقهى انديانا تلك المقهى المشرفة على ميدان الدقى فقد كان روادها من المثقفين الذين خرجوا من بيئة شعبية وتمكنوا بعلمهم من احتلال مراكز اجتماعية مرموقة ، وأصبحوا نجوما للصحافة والأدب ، ومن هنا فقد اهتموا بمشاكل الطبقة الوسطى بصراعاتها وبنزوعها نحو التسلق وبأزماتها الاجتماعية الخاصة [١] .

هذا عن الدور الفكرى والاجتماعى للمقاهى والذى عبر عن وجدان الشعب المصرى وكان بمثابة مراكز اشعاع مضيئة فى كافة أنحاء مصر ، حضرها وريفها . أما عن الدور السياسى فهذا ما سنعرض له .

---

(١) سمير سرحان : على مقهى الحياة ، القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٨ ، ص ١٣ وما بعدها .

٢ - الدور السياسي :

ومن المقاهى التى كان لها دورٌ سياسىٌ : قهوة البوسطة التى تقع فى ميدان العتبة الخضراء بالقرب من مصلحة البريد بالقاهرة ، والذى تغير اسمها بعد ذلك وأصبحت تعرف بقهوة « متاتيا » إذ كان يؤمها لفيف كبير من أقطاب الفكر والسياسة .

وإلى جانب ذلك فقد ارتبط هذا المقهى بنشاط جمال الدين الأفغانى فى مصر ذلك النشاط الذى يعد فصلا هاما من فصول الفكر السياسى فى تاريخ مصر الحديث . فكان الأفغانى الذى حمل بين جنباته أفكارا لتحريك الشعور الوطنى والنهوض بالاسلام والمسلمين والوقوف فى وجه الاستعمار والمستعمرين ، يطيب له الجلوس فيها ، عصر كل يوم إلى ما بعد المغرب حيث كان يلتف حوله طلابه ومريدوه على هيئة نصف دائرة يناقشونه فى أدق المسائل وأعقد الأمور [١] ويتعلمون منه أهمية الاصلاح الاجتماعى وأهمية الخطابة والصحافة فى ترقية الأمم حتى أصبحوا فيما بعد من أعلام النهضة المصرية ومن هؤلاء : الصحفيين الشاميين ، أديب اسحق ، وسليم النقاش ، والشاعر محمود سامى البارودى الذى لعب دوراً رئيسيا فى الثورة العرابية بعد ذلك ، والشيخ محمد عبده ذلك الأزهرى المستنير ، الذى حاول التوفيق بين السلفية والتحديث ، وعبد الله النديم خطيب الثورة العرابية والرجل الثانى بعد أحمد عرابى ، وسعد زغلول ، الذى قاد ثورة ١٩١٩ ، وأصبح أول رئيس وزارة ينتخبه الشعب ، ويعقوب صنوع رائد المسرح العملاق والصحفى الذى أطلق قلمه دون تقيد بقانون أو رقيب .

وخلال الجلسات فى هذا المقهى لم ينقطع الأفغانى عن شرب الشيشة وتوزيع السعوط بيمناه والثورة بيسراه حيث سخر حديثه فى

---

(١) أحمد أمين : زعماء الاصلاح فى العصر الحديث ، القاهرة ، النهضة المصرية ١٩٧١ ، ص ٧٨ .

خدمة مطالب الشعب المصرى ، والدفاع عن حقوقه وقضاياه فكانت كلماته تغلى لها الدماء « إنكم معاشر المصريين قد نشأتم على الاستعباد وتربيتم على الاستبداد .. هبوا من غفلتكم .. وأصحوا من سكرتكم .. عيشوا كباقى الأمم أحراراً أو موتوا مأجورين شهداء ! » و .. « أنت أيها الفلاح المسكين تشق قلب الأرض لتستنبت ما يسد الرمق ويقوم بأود العيال .. لماذا لا تشق قلب ظالميك ؟ لماذا لا تشق قلب الذين يأكلون أتعابك ؟! » .

ولم يتوقف نشاط الأفغانى فى هذا المقهى حتى قبض عليه فى جنح الظلام بعد خروجه منه واقتادته الشرطة تحت الحراسة إلى السويس حيث ركب سفينة خرجت به من مصر منفيا إلى الهند فى عهد الخديو توفيق ومع ذلك فقد استمر تلاميذه من جلساء هذه القهوة يشعلون الحماس فى النفوس حتى نجحوا فى الهاب شرارة الثورة العرابية .

ولم يتوقف النشاط السياسى فى تلك الفترة على مقهى متاتيا بل كان هناك مقهى « يلدز » القريب من حديقة الأزبكية والذى كان يتوافد عليه طلائع المفكرين الأحرار من مصر والعالم العربى ومنهم عبد الرحمن الكواكبى الذى فر من الاضطهاد العثمانى فى بلاد الشام إلى مصر ، وعاش فى القاهرة معززا يكتب على صفحات جريدة المؤيد حلقات كتابه « طبائع الاستبداد » كما كان يتوافد على هذا المقهى محمد كرد على ، ومحد رشيد رضا .

وفى هذا المقهى التف حول الكواكبى مجموعة من رجالات حركة تركيا الفتاة الذين كانوا يتطلعون إلى اليوم الذى تخلص فيه أوطانهم من ربقة الذل والهوان ، وقد سرت أفكار الكواكبى فيهم وباتت كلماته عن الاستبداد بمثابة المشاعل التى تهديهم إلى طريق الخلاص ، مما دفع السلطان عبد الحميد إلى التخلص منه .

ومما يروى أنه بعد أن ارتشف فنجانا من القهوة فى هذا المقهى أحس بألم فى إحشائه ، وظل يقيء حتى فارق الحياة [١] .

وبالنسبة لقهوة بار اللواء [٢] التى كانت تقع أمام بناية جريدة الأهرام القديمة بشارع مظلوم فى قلب القاهرة فقد كانت منتدى لأهل الفكر والأدب والصحافة .

وعلى الرغم من أن صورة الزعيم الوطنى مصطفى كامل كانت تتصدر هذه القهوة الكبيرة ، وبالرغم من أن العديدين من رجالات الحزب الوطنى كانوا من روادها فقد ارتادها العديد من رجال السياسة والأحزاب الأخرى لا سيما حزب الأحرار الدستوريين ، كما كان يجلس عليها محررو الكشكول والسياسة الأسبوعية . يضاف إلى ذلك أن أنطون الجميل باشا رئيس تحرير الأهرام كان يترك مكتبه فى الجريدة ليتخذ من احدى مناضد هذه القهوة مكتبا له حتى يجمع من حوله الأدباء والشعراء [٣] .

وإلى جانب ذلك ، فقد كان حافظ ابراهيم يلتقى فى هذا المقهى بالصحفيين ، أمثال داود بركات ، وتوفيق فرغلى حيث يتمتع بمجالسة الظريف محمد البابلى ، ويحظى بطعامه الدسم ، وشرابه المعتق الذى كان يأمر به فور حضوره ، ثم تدور الأحاديث الجدية والساخرة وطرائف النوادر بينهم [٤] .

---

(١) عباس العقاد : « الرحالة ك » ، القاهرة ، دار نهضة مصر ١٩٨٦ .

(٢) كان اسم جريدة اللواء التى أسسها مصطفى كامل فى عام ١٩٠٠ قد انتشر فى القاهرة وغيرها وأطلق على بعض المدارس والصيدليات والمحلات التجارية وغيرها .

(٣) عبد المنعم شميس : قهاوى الأدب والفن فى القاهرة ، القاهرة ، دار المعارف ١٩٩١ ، ص ١٠٠ .

(٤) محمد كامل جمعة : المرجع السابق ، ص ٥٤ .

والجدير بالذكر أن العائلة الأباظية كان لها ركن ركين فى هذه القهوة وكان من أشهرهم فؤاد باشا أباظة الذى كان رئيسا للجمعية الزراعية ، وفكرى أباظة المحامى والصحفى الشهير ، والوزير ابراهيم الدسوقى أباظة باشا .

وكان من رواد هذا المقهى أيضا الدكتور محمد حسين هيكل والدكتور محمود عزمى الصحفى الشهير الذى تولى منصب عمادة كلية الحقوق وانشأ قسم الصحافة فى كلية الآداب .

وإلى جانب ذلك فلا يمكن أن نغفل فى معرض الحديث عن ثورة ١٩١٩ دور مقهى « جروبى » القديم حيث كان يجتمع فيه بعض رجالات الحركة الوطنية ، كما كانت تذاع منه أخبار الثورة وتوزع المنشورات ، وتدبر الخطط [١] مما ضايق الانجليز وأدى إلى قيام جنودهم باقتحامه فى العاشر من مايو ١٩١٩ والاعتداء على رواده ، كما أخذوا يفتشون الجالسين جزافا بحجة العثور على أسلحة أو منشورات ، ولما لم يوفقوا فى مبتغاهم أصدرت السلطة العسكرية البريطانية أوامرها بحظر الاجتماعات فى المقاهى ، واعتبار أى شخص يشترك فى مثل هذه الاجتماعات مخلا بالنظام والقانون ، كما اعتبر أى اجتماع يعقد فى مقهى ، ويحضره أكثر من خمسة أشخاص وتلقى فيه خطب أو يحدث فيه ما يعكر صفو الأمن العام يؤدى إلى غلق هذا المقهى فى الساعة السادسة مساء فى المخالفة الأولى ، وإلى الغلق النهائى فى المخالفة الثانية [٢] .

---

(١) الرمادى : مرجع سابق ، ص ٩٤ .

(٢) عبد الرحمن الرافعى : ثورة ١٩١٩ ، جـ ١ ، القاهرة ، ١٩٥٥ ، ص ٢٧ - ٢٨ .
والجدير بالذكر أن القوات الانجليزية كانت تنتقم لخسائرها باقتحام المقاهي والاعتداء على كل من يأوي إليها من المصريين لدرجة أن نصح رجال البوليس أصحاب المقاهي المشهورة بالاغلاق
فهيمة ثابت : الزعيم الخالد وأم المصريين في منفي جبل طارق ، القاهرة ، مطبعة الشمس الحديثة ، د . ت ، ص ٩٩ .

ومع كل ذلك فقد ظلت أنشطة هذا المقهى فى التزايد ، كما تزايد عدد رواده لدرجة أن شاعر النيل حافظ ابراهيم قد طلب من هؤلاء الرواد أن يتخففوا عنه شيئا فشيئا وذلك فى قوله :

وما بال قومى لا ينزلـــون بغير جروبى وبار اللواء [١]

ولم يتوقف الأمر على هذا المقهى ، بل كان لمقهى الحلمية دورٌ مميز خلال الثورة ،حيث انطلقت منه خططها مماجعل الانجليز يضيقون به ذرعا ، فاعتدوا على رواده أكثر من مرة ، كما قاموا بتفتيشهم بحجة ضبط المنشورات الثورية [٢] .

يضاف إلى ذلك أن قهوة أحمد عبده التى ذكرها نجيب محوظ فى روايته « بين القصرين » كانت تعجُ بالثوريين الذين امتلأت قلوبهم بالغضب من الانجليز وتصرفاتهم خاصة بعد نفيهم لسعد زغلول إلى مالطة فبعد أن ضاق فهمى بمجلسه « نازعته نفسه إلى الاجتماع بإخوانه فى قهوة أحمد عبده حيث يظفر بقلوب تستجيب لقلبه ونفوس تسابقه إلى الاعراب عما يضطرم فى قراراتها من الاحساس والرأى . هناك يسمع أصداء الغضب المتقد فى قلبه ، ويستأنس بايماءته الجسورة الملتهبة فى جو باهر من التعطش إلى الحرية الكاملة ، مال إلى اذن ياسين وهمس : إلى قهوة أحمد عبده ، فتنفس ياسين من الأعماق » [٣] .

أما بار الأنجلو ؛ فقد ضم كبار الساسة والكتاب على اختلاف انتماءاتهم الحزبية ، ونزعاتهم السياسية ، فكان يجلس فيه

---

(١) ديوان حافظ ابراهيم ، جـ ١ ، القاهرة ، مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٣٧ ، ص ٢٢٤ .

(٢) الرسالة : العدد ٢٩٢ فى ٦ فبراير ١٩٣٩ .

(٣) بين القصرين : القاهرة ، مكتبة مصر ، ص ٣٣٨ .

محمد حسين هيكل الدستورى ، وحافظ عوض الوفدى ، وفكرى أباظة نصير الحزب الوطنى وغيرهم من السياسيين . كما كان الدكتور على ابراهيم والشيخ عبد العزيز البشرى يقصدانه خلال بعض الامسيات حيث يمتد بهم السهر إلى ما بعد منتصف الليل [١] .

وبعد أن امتد النشاط الشيوعى فى مصر خلال الحرب العالمية الثانية كانت أغلب جلسات زعماء هذه الحركة المفضلة على رصيف قهوة ايزافتش .

لقد كان هذا المقهى يحتل موقعا متفردا وسط ميدان التحرير ويملكه مهاجر يوغسلافى من البوسنة فر من بلاده بعد انفراد تيتو بالسلطة واستطاع أن يجعل من هذا المقهى أشهر مقهى فى مصر قبيل الخمسينات من هذا القرن .

هذا عن المقاهى ودورها فى المجتمع المصرى ، أما عن المنتديات والصالونات الأدبية أو تلك الأندية الارستقراطية التى كانت تجذب إليها صفوة قادة الرأى وأقطاب الفكر والتى كان للفكر والأدب مجالس خاصة بها ، فقد ظهرت فى أواخر القرن التاسع عشر وانتشرت فى مطلع القرن العشرين ومن أهمها : صالون نازلى فاضل وصالون مى زيادة وصالون العقاد وصالون طه حسين وغيره .

أما صالون نازلى فاضل فقد كان يعد من أبرز هذه الصالونات وأشدها تأثيرا فى الحركتين الأدبية والسياسية خلال الثلث الأخير من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين حيث ضم بين جنباته صفوة القوم فى مصر أمثال شريف باشا ، ورياض باشا ، ولطيف باشا سليم ، وعمر باشا لطفى ، وشاهين باشا وغيرهم ممن تألفت منهم هذه

---

(١) الرمادى : مرجع سابق ، ص ٩٦ .

الجماعة التى عرفت باسم جمعية حلوان السرية ثم الحزب الوطنى بعد ذلك [١] .

كما قام هذا الصالون بجهد كبير فى تغيير فكر واتجاهات جماعة الشيخ محمد عبده ، تلك الجماعة التى بدأت جذورها منذ حضور الأفغانى إلى مصر ، وأزدهرت بفكر ونشاط الشيخ محمد عبده نفسه كما ضم هذا الصالون بين جنباته قاسم أمين وسعد زغلول وابراهيم الهلباوى ، وأحمد فتحى زغلول ، وابراهيم المويلحى ، وأديب اسحق ، والشيخ على يوسف ، وحسين رشدى وغيرهم من قادة الفكر والرأى والسياسة الذين أدوا دورا متميزا فى تاريخ مصر الحديث والمعاصر ، هذا إلى جانب أنه كان يضم بين جنباته كبار رجال الاحتلال البريطانى فى مصر أمثال « اللورد كرومر » والمستشرق « رونالدستورز » .

وفى هذا الصالون كانت تناقش مسائل الاصلاح الاجتماعى ويتدارس خلاله الفكر الراقى ، وفى هذا الصالون أيضا نبتت فكرة كتاب تحرير المرأة لقاسم أمين ، ذلك الكتاب الذى تسبب فى هز المجتمع المصرى من الأعماق ، وأثار العديد من المعارك الفكرية والاجتماعية والدينية فى ذلك العصر .

وعن صالون « مى زيادة » [٢] تلك المرأة القوية الحجة ، وصاحبة القلم التى عاشت على ضفاف النيل وتألق نجمها ونالت من الشهرة ما لم تنله أديبة مثلها فى عصرها خاصة وإنها اتقنت فن المقال والخطابة والنقد بالاضافة الى تفتح مواهبها الشعرية فقد تزاحم على الاقتراب منها أبناء جيلها من الأدباء والمثقفين ، وكبار الشخصيات خاصة وأنهم

---

(١) للتفاصيل أنظر : عبد المنعم الجميعى : عبد الله النديم ودوره فى الحركة السياسية والاجتماعية ، القاهرة ، ١٩٨٠ ، ص ٣٠ - ٨١ .

(٢) اسمها الحقيقى « مارى إلياس زيادة » ، وقد ولدت فى عام ١٨٨٦ من أب لبنانى وأم فلسطينية ، وقد رحل والدها إلى القاهرة فى عام ١٩٠٨ حيث أسس مجلة المحروسة .

من الجيل الذى لم يتعود على اختلاط امرأة فى بهجة الصبا ، وعذوبة الأنوثة بهم تناقشهم وتبادلهم أطراف الحديث بأسلوب لبق ، وجرأة مثيرة للدهشة تتحدث خلالها عن تحرير المرأة وضرورة اعطائها حقوقها السياسية وافساح المجال أمامها فى العلم والعمل [١] . عن هذا الصالون نذكر أنه كان بمثابة منارة للفكر المعاصر ، والفن والشعر والأدب قصده أناس عديدون منهم من يتحدث بالعربية بلهجة قاهرية ، ومنهم من يتحدثها بلهجة حلبية ، ومنهم من يتحدث الانجليزية ، ومنهم من لا يحلو له الحديث إلا بالفرنسية فقد قصد هذا الصالون أحمد شوقى ، وحافظ ابراهيم ، وخليل مطران ، ولطفى السيد ، والشيخ عبد العزيز البشرى ، وولى الدين يكن ، وأنطون الجميل ، وأمين المعلوف ، ومصطفى صادق الرافعى ، وشبلى شميل ، وجرجى زيدان صاحب الهلال ، وسلامة موسى ، والدكتور على ابراهيم ، ومنصور فهمى ، وعباس العقاد ، وطه حسين وغيرهم حيث كانوا يتبادلون كل ثلاثاء فى شقتها الملاصقة لجريدة الأهرام [٢] أشهى الأحاديث الأدبية والفكرية ، والأبيات العذبة من الشعر الرصين كما كانت تفتح من خلاله أبواب التحاور فى موضوعات فكرية شتى ، وكانت « مى » كثيرا ما توجه هذا الحوار ، ومما يذكر أن طه حسين سمع فى هذا الصالون ولأول مرة نقد « مى » لرسالته فى الدكتوراه عن أبى العلاء [٣] .

ولم يسمع أن أحدا تخلف عن موعد الثلاثاء فى صالون « مى » بل كان الكل يحاول أن يسبق الآخر فى الوصول إلى الصالون حتى يحظى بدقائق منفردة مع « مى » .

---

(١) عباس العقاد : أنا ، القاهرة ، دار الهلال ، ص ١٦ .
(٢) محمد عبد الله عنان : ثلثا قرن من الزمان ، القاهرة ، دار الهلال ، ص ١١٦ .
(٣) مذكرات طه حسين ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ص ٤٦ .

وظل هذا الجو الفكرى المرح ، وتلك المناقشات والمساجلات على حالها حتى قامت ثورة ١٩١٩ وشملت كافة طبقات الأمة ، فتغيرت مناقشات الصالون ، واختفى أغلب رواده حيث شغلهم العمل الثورى بعد أن نزلت الثورة إلى الشارع ، واجتاحت أفكارها مقاهى الموائد والمنتديات ، وبدأ الناس يلوكون سمعة ساسة عابدين ، والآستانة ، وقصر الدوبارة [١] .

وبعد انتهاء الثورة عادت أمور صالون « مى » إلى حالها وشاركت « مى » ضيوف صالونها فى كل حديث .

وقد ظل هذا الصالون مكانا محببا لدى العديد من المثقفين حتى تعرضت صاحبته لمرض وبيل توفيت على أثره فى أكتوبر من عام ١٩٤١ ، وأصبح صالونها ذكرى بعد أن كان أثرا [٢] .

وعن صالون العقاد الذى كانت تعقد جلساته فى بيته يوم الجمعة أسبوعيا فى مصر الجديدة بشارع السلطان سليم رقم ١٣ فقد احتشدت فيه العديد من العقول التى حددت ملامح هذا الجيل . ولم يكن لجلساته موضوع محدد بل دارت فيها موضوعات شتى من التاريخ والأدب والفلسفة والفن والسياسة والفكاهة والنوادر فى كل فروع المعرفة الانسانية خاصة وأن العقاد لم يتخصص فى أى شىء بل كان عقله موسوعة [٣] .

وكان من رواد صالون العقاد زكى نجيب محمود وصلاح عبد الصبور وسنية قراعة وجاذبية صدقى وأنيس منصور والعديد من المفكرين العرب وغيرهم ومن مقعده أستطاع العقاد أن يتوغل بأفكاره

---

(١) فتحى خليل : سلامة موسى وعصر القلق ، القاهرة ، د. ت ، ص ٧٥ .
(٢) الرمادى : مرجع سابق ، ص ٨١ .
(٣) أنيس منصور : فى صالون العقاد كانت لنا أيام ، القاهرة ، دار الشروق ، الطبعة الثالثة ، ١٩٩٣ .

فى قلوب مريديه ويخاطبهم بلغة المنطق والواقع بجرأة وإصرار ، يتكلم فى الأدب ، ويناقش فى الفلسفة والسياسة ، وينقد الكتب على أساس من دراساته العميقة والجميع يستمعون وكأنهم أدباء أثينا القديمة فى حضرة أفلاطون أو ارسطو [١] .

أما صالون طه حسين فقد كان يعقد مساء كل أحد فى بيته بالزمالك حيث كان يستقبل هو وزوجته سوزان كبار رجالات وسيدات الثقافة والمجتمع ، وضيوف مصر من المفكرين يتناقشون فيما يحلو لهم من أحاديث فكرية خاصة ما كان يدور فى كتبه ، وفى القضايا التى كان يثيرها من أجل حرية الرأى ، والجديد فى الفكر المعاصر [٢] .

وكان من زوار هذا الصالون د. حسين فوزى صاحب السندباد المصرى ، والدكتور أحمد ابراهيم رئيس ديوان المحاسبة ، والدكتورة سهير القلماوى ، ويوسف السباعى وغيرهم .

ومما سبق يتضح أن المقاهى والصالونات الأدبية كانت حياة زاخرة بالأفكار ، والأحداث ، والشخصيات الذين صنعوا الحياة الفكرية والثقافية والسياسية فى مصر وكانوا بمثابة عقول الأمة وصناع وجدانها . وان هذا الوهج قد اختفى بكل مباهجه فى هذه الأيام ، ولم يعد فى القاهرة من مقاهى الأدب والفن سوى القليل ، كما لم نعد نسمع عن معركة فكرية أو قضية سياسية داخل مقهى أو صالون يمكن أن تساعد على قلب رتابة حياتنا خاصة وأن عصر التليفزيون ، وثقافة الساندوتش السريعة قد أغلقت هذا الباب بالضبة والمفتاح إلى حد كبير .

* * * * *

---

(١) محمد نصر : أدباء فى صور صحفية ، القاهرة ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٥ ، ١٧٢ .

(٢) كمال الملاخ : طه حسين قاهر الظلام ، القاهرة ، دار الكتاب الجديد ١٩٧٢ ، ص ١٧٨ .